فلسفة التربيـــــة

تطبيقات على التربية في مصر

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٢ —

«لا معرقل لنهضة الأمة أشد وأفدح من تباعد ثقافتها وانقسام عقليتها»

« *** »

« لقد قررنا أن نجعل كل مواطن موضع عناية الدولة وحمايتها ، فعشرات الملايين محرومة الآن مما نسميه بمقاييسنا الدنيا « ضرورات الحياة » ! ولذلك سيكون مقياس نجاحنا هو : لا هل أضفنا زيادة لأغلب أولئك الذين عندهم الكثير ! بل هل قدمنا الكفاية لأولئك الذين ليس عندهم إلا أقل القليل » ؟!

« الرئيس وشنطن »

٢ — الأمية وانقسام الثقافة

تبينت في المقال السابق أهمية الموضوع وخطورته بالنسبة لمصر ولا سيما في عصرها الراهن ، وعلمت بأمر هذه الرسالة النقدية الحصيفة التي قد أخرجها « الدكتور جاكسن » أخيراً متناولاً فيها بعض نواحي النقص بالتجريح والعلاج ، وستقرأ منذ اليوم تلخيصاً وتعليقاً على هذه الرسالة الفريدة ، كما ستقرأ فيما بعد ما أستطيع أن أقدمه من ملاحظات واقتراحات ...

١ — فرصة ملائمة للإصلاح

والحق أن الفرصة الحاضرة ملائمة من جميع نواحيها لاصلاح التربية في مصر . ذلك أن تيار الوطنية الجارف قد أوجد شعوراً عاماً بوجوب النهضة ، وبعث المجد القديم ، والاحتفاظ بما كسبنا من حقوق ، فالتنبيه إلى أن التربية الصالحة خير أداة لتحقيق هذه النهضة المنشودة يجد صداه بسهولة في الرأي العام ، ويجد مكانه اللائق به في برامج الأحزاب ونفوس الزعماء ؛ وإذاً فلا مندوحة لنا من انتهاز هذه الفرصة المواتية والعمل على الاستفادة منها ، ولنحذر تماماً مغبة الاندفاع الكلي إلى شئون الدفاع الوطني وحده لأن السيف كما يقولون لا يعمل إلا في يد بطل ! ولنكتف بما كان فنصرف الطلبة إلى شئون الدراسة وحدها لأن السياسة قد جنت على ثقافة البلد وأخلاقه بتخفيضها نسبة النجاح نزولا على صيحات الكسالى الراسبين !!

٢ — الحاجة إلى الزعماء الكثيرين

فترى إذاً ما هي حاجة النهضة المرموقة ؟ أحسب أن هذه النهضة تتطلب أولاً وقبل كل شئ زعماء كثيرين جديرين ، يستطيعون أن يحملوا الشعلة وينطلقوا إلى تبديد الظلام في شتى نواحي الضعف والنقص بقلوب فتية ، ونفوس حازمة ، وضمائر نقية تقدر المسئولية وتتفانى في التضحية وضرب المثل الأعلى ؛ زعماء لا سياسيين فحسب ، ولكن أخلاقيين واقتصاديين ورياضيين واجتماعيين وغير ذلك مما تتطلبه نواحينا الكثيرة المتباينة ... ويقع عبء تخريج هؤلاء الزعماء على المدرسة والبيت بما فيهما من معلمين وآباء !! أو قل إنه يقع على المعلمين بوجه خاص ، فاذا نجحنا في إخراج هؤلاء فقد وضعنا الأساس القوي المكين . ولا سبيل إلى هذا النجاح إلا بتعليم إنساني يحفز ويثير ويقوي الشخصية ويخلق رجل المشروعات ...! وهنالك تنحط الزعامة على كثير من الخريجين وتسمى إليهم ...! أما تعليم الحفظ والاستيعاب والجمود والانكماش فلا يخرج إلا أفراداً مصبوبين في قالب واحد ، لاخلق فيهم ولا تكوين ، ولا إزهار ولا إبداع !

٣ — محور الأمية وتوحيد الثقافة

ثم ماذا ؟ ؟ يتبقى بعد تكوين هؤلاء الزعماء أن نجد « الشعب » الذي يتبعهم عن فهم وتقدير وبحماس واتحاد ؟ ! فهل لدينا ذلك الشعب ؟ ثمانون في المائة يا عزيزي أميون ! وأغلب الأقلية المتعلمة لا يدري من شئون العلم غير مجرد القراءة والكتابة ! ! وأغلب ما يتبقى بعد ذلك سطحي الثقافة فج العلم ملتوي الشخصية خامد الشعور ! ! ثم ليت هؤلاء — مع الأقلية الراقية الثقافة — متحدين في العقل والقلب والعقائد والأماني ! ! أليس فيهم المصري الشرقي والمصري الغربي ؟ ! أليس فيهم المعمم بكل ما له من منطق يخالف المطربش ولا يكاد يتفق معه في فهم الحياة ولا سيما نواحيها الحديثة ؟ ؟ كيف إذاً نستطيع أن نرجو لهذه الأمة نهضة وهي جاهلة ومنقسمة ؟ ؟ كيف نستطيع أن نسوقها إلى الحرية والاستقلال والمجد وسوادها الأعظم يعيش كما تعرف في كفاف العيش ، وظلام العقل ،

ومستوى الحيوان ؟ ! وكيف نستطيع أن نطمع في اتحادها وزهرة رجالها متباعدون لا يجمعهم عقل واحد ، ومتنازعون يحاول كل منهم أن يفرض تقاليده على الآخر ؟ ؟

٤ — روح التعليم الراهن

ومع كل فهل روح التعليم في الثقافة الشرقية (وتتمثل في الأزهر الشريف وكلياته وما يقترب منه) والثقافة الغربية (وتتمثل على الخصوص في المدارس الابتدائية والثانوية والخصوصة والجامعة) صالح كل الصلاح ؟ يرى « الدكتور جاكسون » أن ذلك الروح ما يزال مشوباً في كلتا الثقافتين بألوان من النقص كثيرة . فالتعليم الشرقي بالرغم من سموه على التعليم الغربي بروحانيته العالية ، وأخلاقه الدينية ، وعقائده السليمة ، يعنى كثيراً بالتكرير والتقليد لا بالكشف والخلق والإبداع . ولذلك كانت نتائجه سالبة أكثر منها موجبة ، وكان أثر خريجيه في إصلاح الشعب أقل مما يجب وإن كان في مجموعه عظيماً . ولئن قيل إن العلوم الحديثة قد أدخلت أخيراً في هذه الثقافة فالراجح أن إدخالها لم يزل شكلياً في طريقته ونتائجه ، ولذلك لم تزل هناك حاجة قصوى للتعديل فيه والإصلاح ؛ أما التعليم الغربي فنواحي نقصه كذلك كثيرة . ومن هذه النواحي إخراج الطالب مخالفاً لتقاليد عائلته وأمته ومنقماً عليها ، وراغباً في التجديد الأعمى الذي لا يحفظ له شخصيته كمصري وشرقي ، ولئن كانت به عناية أكثر بالكشف والخلق والابداع فان تكوين الروح الاجتماعية ما يزال ضعيفاً فيه ، وعنايته بالحفظ والحشو تكاد تطغى به على غيرها

هذا من ناحية . ومن ناحية إعداد « المعلمين » في كلتا الثقافتين نرى كذلك من التباعد وعدم توحيد المجهود واختلاف النزعة الشيء الكثير[1] ... وقد نجم عن ذلك تباعد طوائف المعلمين في المشرب وعدم تعاونهم واتحادهم في دراسة قضية التربية مع أنهم جميعاً تلك الطائفة المختارة التي قد ألقت إليها الأمة بفلذات أكبادها لإعدادها خير إعداد ! أفي المحامين أو الأطباء انقسام وتباعد كما في المعلمين[2] ؟

(١) فمثلا في مصر ثلاثة معاهد مختلفة لتخريج معلمي اللغة العربية وهي الجامعة ومعهد التربية — ودار العلوم — ومدارس المعلمين ! !

(٢) وأثر ذلك التباعد في « قضية المعلمين » ذاتها لا يحتاج إلى بيان . ونرجو أن يتسع لنا الوقت فيما بعد لتناول حياة المعلم الحاضرة وما يجب أن تكون عليه بالنقد والاقتراح

٥ — ضرورة التقارب والتوحيد

هناك نزاع إذاً بين الثقافتين عنيف ، والواجب هو التقريب والتوحيد بقدر المستطاع ! مهما حاولنا أن نبقي الشرق شرقاً والغرب غرباً ، لأن الاتصال بينهما يزداد كل يوم ويتضاعف ، ولأن في الغرب من القوة والحياة كل ما هو جدير بالاتساق والانسجام مع عظمة الشرق ومجده ! لسنا ندعو إذاً إلى طغيان أحدهما على الآخر ، لكنا نريد تناسقاً يخلق لنا حياة أغنى وأعمق وأكثر بعثا للرضى والتآلف والارتياح . يقول فرويد Froude « إن عدم التغيير موت » ! فلنأخذ من الغرب مثلاً رياضته وهندسته وتربيته وفنه ، ولنبق للشرق خلقه وكرمه وروحانيته ، وليكن رائدنا في جميع ما نأخذ وما ندع هو الرغبة في التقدم الذي يحفظ لنا شخصيتنا ولا يتركنا متخلفين وراء الغرب ، ولتكن خطتنا هي التقريب بين المعاهد المختلفة لتحسين خططها وتوحيد غرضها وتقليل نفقاتها ، بحيث ينجم عن ذلك التقارب تعاون متناسق يعمل من أجل غرض واضح مرسوم . ذلك أن العقل الناجح هو ذلك الذي تعمل خلاياه باختلاف ولكنها ترجع جميعاً إليه كعقل واحد منتظم . وإذا بحثنا عن ذلك العقل الموحد في هيئاتنا التعليمية لم نجد بين خلاياه اتصالاً معقولاً ، ولم نجد له غرضاً واحداً موضوعاً تعمل الجهود المختلفة على تحقيقه

٦ — اقتراحات للإصلاح

ولئن كانت مصر قد أخذت بكثير من نواحي العلاج ، وستستفيد بلا ريب من احتكاكها بعصبة الأمم في نواحي الصحة والطفولة والعمال والتعاون الفكري فلا شك أنها محتاجة لبحث الشئون الآتية كوسائل ضرورية للعلاج :

(١) النظر في أية ثقافة جديرة بالتشجيع ؟ وأية حياة مثلى يجب أن تسيطر على نظام التربية ؟[1]

(٢) نشر التعليم ومحو الأمية والارتقاء بمستوى السواد

(١) وتستطيع أن ترجع هنا للمقدمة السابقة الطويلة التي قدمناها . ولعلك ترى معي وجوب العناية بالناحية الخلقية والقومية والاجتماعية والدينية في ثقافتنا . هذا إلى جعل عملية الثقافة ذاتها متفقة وأصول التربية الحديثة التي تنص على تقوية الفكر واستعمال اليد وإرهاف الحس وتغذية الشعور . الخ فلا يتعلم الأطفال القراءة والكتابة فقط . بل يفكرون لأنفسهم ويصدرون أحكاماً نزيهة عادلة على الأشياء كما هي ، ويساهمون في المجتمع فخورين بعضويتهم فيه مقدرين لعظمائهم وفنهم وتقاليدهم وأغانيهم ، ناظرين إلى دولتهم كعضو عامل في العالم الأكبر له مكانته الحاضرة ومجده القديم